2-أساليب التّربيّة الرّوحيّة من منظور الإمام علي عليه السّلام

Methods of spiritual education from Al Imam Ali's perspective

بقلم الدكتورة فريال محمّد الحاج دياب

استاذة جامعية في اللغة العربية وآدابها

feryalhajdiab@gmail.com

المُلخّص

حاولنا في هذا البحث تسليط الضّوء على تعريف التّربية الرّوحيّة في الإسلام، وأهم أساليبها في فكر الإمام علي (ع). فقمنا بتعريف التّربية بشكلٍ عام، وكذلك، التّربية الرّوحية التي تتعلّق بالرّوح أو النّفس، وهي تزكيتها وتطهيرها...

وتطرّقنا إلى أهمّ أساليب التّربية الرّوحيّة من منظور الإمام (ع)، ومنها:

تهذيب النّفس، وتذكيرها بالموت، تعويدها على الصّبر والحلم، المودّة، حسن الظّن، الزّهد والتّقوى... وكلّها من أسس التّربية القويمة عند الإنسان، وخير الزّاد الذي يغذي الرّوح ويهذبها.

The Summary

In this research, we have tried to shed light on the definition of spiritual education in Islam, and its most important methods in the vision of Al Imam Ali.

So we defined education in general, as well as spiritual education that is related to the spirit or the soul, and its purification…

We discussed the most important methods of spiritual education from the perspective of the Imam, including:

Refining the soul, reminding it of death, accustoming it to patience and forbearance, affection, good faith, asceticism and piety… All are among the foundations of a person's upright upbringing, and the best provision that nourishes and refines the soul.

المقدمة:

سنحاول في هذا البحث أن نجيب عن السّؤالين الآتيين:

1- ما هي التّربية الرّوحيّة في الإسلام؟

2- ما هي أساليب التّربية الرّوحيّة في فكر الإمام علي عليه السّلام؟ بداية علينا أن نفهم ماذا نعني بالتّربية؟ التّربية بمعناها اللّفظيّ في اللّغة العربيّة جاءت من ربّى يُربّي، بمعنى هذّبَ ووجّه وساسَ وقادَ وغذّى، والفعلُ رَبا بمعنى زادَ ونما. فهي عند اللّغويّين تفيد السّياسة والقيادة والنّمو والتّغيير.[1] والتّربية بمفهومها اللّغويّ هي التّغذية الرّوحيّة. يُقال: «وربيّته تربيةً أي غذّيته، وهي لكلّ ما ينمو كالزّرع والولد...»[2]. أي من تغذّى هذه التّربية وكانت تربيته صالحة حسنة. نشأ نشأةً صحيحة، مهذّبة من الشّوائب التي تعكّر السّبيل. فالتّربية وفق هذا المفهوم، تعني تعهّد الطّفل بالرّعاية والتّغذية الماديّة والمعنويّة حتّى يشبّ. ولقد اهتمّ الفلاسفة والعلماء بمفهوم التربية، وجهدوا في الكشف عن مضامينه العلميّة، وأوجدوا له عددًا من التّفسيرات المختلفة في الشّكل، لكنّها متّفقة في الجوهر. أمّا **التّربية الرّوحيّة**، «فهي التّربية الّتي تتعلّق بالرّوح أو النّفس، وتعني تطهير النّفس، أو السّفر إلى الله»[3].

(1)- الدكتور مروان العطية، معجم المعاني الجامع،معجم عربي عربي، المكتبة الشاملة.
(2)- الشّيخ فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، ج1، ص175.
(3)- سعيد حوى، تربيتنا الروحية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1979م، ص 69.

وفي الإسلام، فإنّ المقصود بالتّربية الرّوحيّة هو تزكية النّفس، والانتقال من نفسٍ غير مزكّاة إلى نفسٍ مزكّاة، ومن قلبٍ قاسٍ إلى قلبٍ مطمئن سليم، ومن روحٍ تائهةٍ إلى روحٍ عارفة بالله، عابدة مذعنة لتعاليم القرآن الكريم والدّين الحنيف.

إنّ الحياة الصّحيحة للإنسان في هذه الدّنيا، هي أساس تكريمه وفلاحه في الآخرة، فإذا انهارت دنياه بسبب انحرافه انهارت آخرته. قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ **ومن كان في الدّنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلًا** ﴾ [1]. فالتربيّة الرّوحيّة هي تطوير النّفس وتزكيتها، وقد أقسم الله تعالى أحد عشر مرّة في كتابه العزيز على فلاح من زكّاها. يقول سبحانه في سورة الشّمس: ﴿ **ونفسٍ وما سوّاها فألهمَها فُجورَهَا وتقوَاهَا** قد أفلحَ من زكّاها وقد خاب من دسّاهَا... ﴾ [2].

من ذلك نرى، أنّ **تزكية النّفس وتدريبها على ترك المعاصي** أمرٌ مهمّ، وكذلك كان من ضروريات تربيتنا لأنفسنا صحبتنا للأخيار النّاصحين غير المُضَلّلين.

يقول تعالى في سورة الكهف: ﴿ **واصبرْ نفسَكَ مع الّذين يَدْعُونَ ربّهم بالغداةِ والعشيّ يريدونَ وجههُ ولا تَعْدُ عيناكَ عنهمْ تريدونَ زينةَ الحياةِ الدّنيا ولا تُطعْ من أغفلنا قلبَهُ عن ذكرِنا واتّبعَ هواهُ وكان أمرُهُ فُرطًا** ﴾ [3].

فالله سبحانه يأمر نبيّه صلى الله عليه وسلّم، أن يصبرَ مع أصحابه من فقراء المؤمنين الذين يعبدون ربّهم، وأن لا يصرف نظره عنهم إلى غيرهم من الكفّار من أجل التّمتع بزينة الحياة الدّنيا، فهذه الوصية الإلهيّة هي الطّريقة المُثلى لتزكيةِ النّفس وتهذيب الرّوح، إذا استطاع الإنسان اتباعها، فإنّه سيتغلب على كثيرٍ من المصاعبِ، ويبتعد عن الخطأ والزّلل. هذا الدّرس الإلهي العظيم يقودنا إلى معرفة بعض أساليب التّربيّة الرّوحيّة من منظور الإمام علي(ع).

يرى (عليه السّلام)، أنّ الإنسان هو غاية الوجود، ومن أجله خلق الله ما خلق، وجعله خليفته في أرضه، يمضي في حياته وفق أحكام الله وإرادته، إلّا أنّ ضعف الإنسان أمام إغراء المادة ووسوسة الشّيطان الدّائمة له، جعلته في كثير من الأحيان مسلوب الإرادة، قليل الإيمان. من هنا، وجب أخذه بالتّربية والتّعليم، حتّى تستقيمَ نفسُهُ، ويقوى على مقاومة الضّلال والفساد. ويكون ذلك بأمور عديدة نذكرُ منها:

(1) – القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية 72.
(2)– القرآن الكريم، سورة الشّمس، الآيات 10-9-8-7.
(3)– القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية 28، ص 297.

– تهذيب النّفس وتذكيرها بالموت

إنّ العبد الصّالح هو من يهوى الله طائعًا له، ويستطيع تهذيب نفسه، وإماتة كلّ الشّهوات الدّنيويّة. فالحياة دار ممرّ، ولا بدّ من النّهاية المحتومة، وهي الموت. والموت يعني الموت المادّيّ للجسد، بينما الرّوح هي نفس الإنسان، وهي أمرٌ إلهيّ لا علمَ لنا به، وهي بمثابة القوّة التي تبعث الحياة في الجماد. يقول تعالى في كتابه العزيز:

﴿ **يا أيّتها النّفسُ المطمئنةُ ارجعي إلى ربّكِ راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي**﴾ [1]. وفي ذلك بشرى عظيمة للمؤمنين الّذين أيقنت نفوسُهم بما وعد الله في كتابه، فأخلصوا في عملهم، واسبشروا بالجنّة.

– التّقوى

يقول سيد البلغاء(ع)، ويحثّ النّاس على التّقوى:

«اعلموا عبادَ الله أنّ التّقوى دار حصنٍ عزيز، والفجور دار حصنٍ ذليل لا يمنع أهله، ولا يحرز من لجأ إليه، ألا وبالتّقوى تقطع حمّة الخطايا، وباليقين تدرك الغايةَ القصوى»[2].

فالتّقوى من منظور الإمام(ع)، هي جعل النّفس في وقاية ممّا يُخاف، والتّقوى حفظ النّفس التي جعلها الله تعالى أمانةً عند الإنسان، وعدم إلقائها في التّهلكة، وذلك بترك المحظورات، وفي ذلك، يقول الرّسول الأكرم(ص) في حديثٍ شريفٍ: « **إنّ الحلال بيّن، وإنّ الحرام بيّن، وبينهما أمورٌ مُشتبهات لا يعلمهنّ كثيرٌ من النّاس، ألا وإنّ حِمى الله محارمهِ، ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحتْ صلُح الجسدُ كلّه، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلّه ألا وهي القلب**» [3].

فالتّقوى هي السّلم الّذي يصلُ الإنسان من خلاله إلى مدارج الكمال، ويرتقي بها إلى المقامات السّاميّة. ويرى عليه السّلام أنّ النّفس محتاجة إلى تغذية كالبدن تمامًا. ويظهر ذلك في قوله (ع):

« نفسك التي بين جنبيكَ إن لم تشغلْها بالطّاعة شغلتك بالمعصية، وإن لم تشغلها بالحقّ شغلتك بالباطل»، وهذا القول يلتقي مع كلام الله عزّ وجلّ:

(1)– القرآن الكريم، سورة الفجر، الأية 27، ص 594.
(2)– نهج البلاغة، خطب الإمام علي(ع)، الخطبة 157، ج2، ص 157.
(3)– الشيخ ابن عثيمين، التحفة الربانية في شرح الأربعين حديثًا، مطبعة دار نشر الثقافة، الاسكندرية، ط1، 1380هـ.

﴿ **إنّ النّفس لأمّارة بالسّوء إلّا ما رحِمَ ربّي إنّ ربّي غَفُورٌ رحيمٌ** ﴾ [1].

فالنّفس معرّضة للمرض كالبدن المعرّض للأسقام، وسقم البدن آني، لكنّ سقم الرّوح ذو أثرٍ دائم، ويتجدّد بعد الموت. يقول عليه السّلام: « **فمن أخذ بالتّقوى عَزَبتْ عنهُ الشّدائدُ بعد دنوّها**»[2]. فلو أنّ الفرد اتّخذ من التّقوى سبيلاً في حياته، فسوف تبتعد عنه كلّ المساوئ والمشاكل، حتّى لو كانت قريبة منه.

من هنا كانت أهمّيّة التّقوى وخشية الله سبحانه، والخوف من عقابه. يقول رسول الله (ص):

« **اللّهمّ اجعلني أخشاكَ حتّى كأنّي أراكَ، وأسعدني بتقواك، ولا تشقني بمعصيتكَ**». ومن ذلك ندرك أهمّيّة الخوف من الشّقاء والعقاب نتيجة معصية الخالق.

لذلك نجد الإمام (ع) يأمرُ النّاس بتطهير نفوسهم وشهواتهم عن طريق التّقوى والورع وخوف الحساب، فيقول عليه السّلام: «**اخشوا الله خشيةً ليست بتعذير(بتقصير)، واعملوا بغير ريّاء ولا سمعة، فإنّه من عَمِلَ لغير الله، وكله الله إلى عمله يوم القيامة**»[3]. فالخشية هنا خشية ليست متلبّسة بتقصير، وهي الخشية المستلزمة للتوافق بين السّرّ والعلانيّة وترك محارم الله، فالإخلاص في العمل أقرب شيء وأشبه بالإخلاص العبادي، وربّما كانا شيئًا واحدًا.

ومن أهم أساليب التّربية الرّوحية من منظور الإمام علي(ع) **أيضًا**:

– تعويد النّفس على الصّبر والحِلْم، فهما سبيل للنجاح والفلاح، وحسن العاقبة

يقول عليه السّلام: « **ذلّلوا أخلاقكم بالمحاسنِ، وقودوها إلى المكارم، وعوّدوا أنفسَكم الحِلْم...**» [4].

التّذليل هنا بمعنى التّأهيل والإعداد والتّربية، وتعويد النّفس على الحِلْم، وهو لا يعني الصّبر وعدم الغضب فقط، بل يكون بمعنى السّعة والتّحمّل أيضًا، فالإنسان في مقابل ما يعترضه من أسباب الغضب، أو أسباب الغرور والعجب...، يجب أن يكون كالبحر الّذي تصل إليه الأنهار الصّاخبة، فتهدأ، لأنّه يضمّها ويبتلعها في نفسه كلّها جميعًا.

(1)– القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية 53، ص242.
(2)– الإمام علي (ع)، نهج البلاغة، ج2، ص 198.
(3)– المازندراني، كتاب شرح الكافي، ص283.
(4)– الحسن بن علي ابن شعبة، كتاب تحف العقول عن آل الرّسول، المطبعة الحيدرية، العراق، ص 224.

- **المودّة**

وهي من أهم أساليب تغذية الرّوح. يقول الإمام عليه السّلام:

« **الأرواح جنودٌ مجنّدة، والمودّة تعاطف القلوب في ائتلاف الأرواح**» [1]. ما يعني أنّ ائتلاف الأبرار إذا التقوا، وإن لم يظهروا التّودد بألسنتهم، كسرعة اختلاط قطر السّماء على مياه الأنهار، على عكس قلوب الفجّار التي تكون بعيدة الائتلاف والتّعاطف.

- **حسنُ الظّنّ**

من أساليب التّربية الرّوحيّة **تعويدها على حسن الظّن**، فإنّ خير الوجود وخير الإنسان عند علي عليه السّلام يستلزمان الثّقة بالضّمير الإنسانيّ. يقول (ع) في إحدى خطبه في نهج البلاغة، متوجّهًا إلى مالك الأشتر: « **فليكن منكَ في ذلك أمرٌ يجتمعُ لكَ به حسن الظّنّ برعيتك، فإنّ حسن الظّنّ يقطعُ عنكَ نصَبًا طويلًا...**»[2]. فحسن الظّنّ يريح الرّوح، ويبعد الإنسان عن تحمّل التّعب والنَّصَب.

لقد كان الإمام (ع) يفهم الحياة على أساس أخلاقي مبنيّ على تهذيب النّفس، وتربية الرّوح تربية قويمة، عمادها تقوى الله، وتهذيب النّفس وتزكيتها، من خلال حسن الظّن بالله، وكذلك بالعباد، خاصّة أنّ إمامنا عليه السّلام عانى في زمانه أزمة أخلاقيّة مروّعة في كلّ جانب من جوانب الحياة الاجتماعيّة التي كان يعيشها. فقد كان يلحظ ذلك الانهيار المخيف في قيم ونظم المجتمع وقوانينه، فعاش عيشة الجهاد الكبير من أجل تقويم دعائم مجتمعه، على أسس رسالة أخلاقيّة فيها تهذيب النّفس أولًا، وتزكية الرّوح بالتّقوى والعمل الصّالح، ومن أساليب التّربية الرّوحيّة التي اتّبعها الإمام علي ودعانا إليها، لتكون منهجًا في حياتنا:

- **الزّهد**

لا شكّ أنّ الزّهد والتّقوى من الخصائص الأساسيّة في الثّقافة العلويّة، وكلاهما عند أمير المؤمنين(ع) أفضل العبادات، وزينة الحكمة، وأساس اليقين، والزّهد والإيمان من أهم أسس التّربية الرّوحيّة التي توصل الإنسان إلى طريق السّعادة الأبديّة.

(1)- أبو الفتح عبد الرحمن الخازني، ميزان الحكمة، ج3، ص562.
(2)- الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، مدينة قم، إيران، ط1، 1414هجري، ص440.

ومعنى الزّهد هو الإعراض عن زينة الدّنيا، والاستخفاف بشأنها، والرّضا بالقليل منها.

فالزّهد كما يصوّره الإمام (ع)، ليس بترك الدّنيا والتّفرّغ للعبادة خوفًا من الحساب، ولا هو تصوّف النّفس بانفصالها عن عالم المادّة، للوصول إلى رحاب الله. يقول عليه السّلام:

« **الزّهد كلّه بين كلمتين من القرآن: قال الله عزّ وجلّ: ﴿ ليكلا تأسوا على ما فاتَكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحبُّ كلّ مختالٍ فخور﴾**[1]. أي يجب علينا أن نتذكّر أنّ كلّ ما أصابنا مكتوب، وأنّ المنع والعطاء هو محضّ ابتلاء، واختبار للصّابر والشّاكر، والنّاسي والعاصي. فإيّاك أن تعصي الله بنعمة أو تبارزه بما أعطى، وإيّاكَ أن تختال أو تنسبَ الفضل إلى نفسكَ، فإنّما هي أفضال الله، وقدره وقضاؤه. وهذا قمّة الزّهد والتّوكّل على الله، ويؤكّد ذلك قول الإمام أمير المؤمنين (ع):

«**فمن لم يأسَ على الماضي، ويفرح بالآتي، فقد أخذَ الزّهد بطرفيهِ**».

وقال عليه السّلام: « **زَيْنُ الحكمةِ الزّهد في الدّنيا**» وقال أيضًا: « **زُهدكَ في الدّنيا يُنجيكَ، ورغبتكَ فيها تُرديكَ**». **وقوله أيضًا: « زُهد المرء فيما يفنى على قدرِ يقينهِ بما يبقى**» [2].

ففي فكر الإمام (ع)، « **من زهدَ في الدّنيا أعتقَ نفسَهُ وأرضى ربّه**». فالزّهد تربية للنّفس وتحرير لها من كلّ ما يتعبها، وإعتاق للرّوح حتّى تنطلق مسلّحة بأجنحة الإيمان والزّهد والتّقوى.

من هنا، كان من أسس التربيّة القويمة عند الإنسان. أن لا تشغله النّعم الإلهيّة، ولا تجعله غافلًا عن شكر الله على ما أعطاه، فهو يزهد فيها لعلمهِ ويقينهِ أنّها لا بدّ زائلة، ولن يبقى له سوى عمله الصّالح، وخير الزّاد الذي يغذّي الرّوح ويهذّبها، فالرّوح سرّ من أسرار الخالق. يقولُ تعالى في كتابهِ العزيز:

﴿ **ويسألونك عن الرُّوحِ قُلِ الرُّوح من أمرِ ربّي وما أوتيتم من العلمِ إلّا قليلًا** ﴾ [3].

هذه الرّوح التي تتقلّب أحوالها، فكما للجسم أحوال. كذلك للرّوح أحوال. يقول عليه السّلام:

(1)- القرآن الكريم، سورة الحديد، الآية 23.
(2)- ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط1
(3)- القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية 85.

إنّ للجسم ستة أحوال: الصّحة، والمرض، والموت، والحياة، والنّوم، واليقظة. وكذلك الرّوح، فحياتها علمها، وموتها جهلها، ومرضها شكّها، وصحتها يقينها، ونومها غفلتها، ويقظتها حفظها»[1] .

من ذلك كلّه، نستنتج أنّ العالم الأكبر مطويّ في وجود الإنسان، فكلّ ما هو موجود في العالم الخارجيّ موجود في النّفس الإنسانيّة، ويختصرُ ذلك قول أمير المؤمنين علي(ع):

أتزعم أنّكَ جرمٌ صغيرٌ وفيكَ انطوى العالمُ الأكبرُ

فالنّفس الإنسانيّة تختصر العالمَ، بكلّ موجوداته، لذا وجب علينا تطهير نفوسنا، وتهذيب أرواحنا، ليتبلّور ذلك من خلال حسن أعمالنا.

يقول عليه السّلام في نهج بلاغته داعيًا إلى تطهير النّفس والسّرائر مبيّنًا أنّها من أفضل الإيمان:

« **زَيْنُ الإيمان طهارةُ السّرائر وحسنُ العملِ في الظّواهر**». وكذلك يدعو إلى إصلاح النّفس من خلال الورع والابتعاد عن المُحرّمات: « **سببُ صلاحِ النّفسِ الورع**».

نستنتج ممّا تقدّم، أنّ الإمام علي عليه السّلام، قد جسّد بفكره ومبادئه وتعاطيه روحيّة الإسلام وأخلاقيته، ورسّخ الفكرة الأساس، بأنّ الإسلام فوق كلّ الاعتبارات، فكان ذلك القلب النّابض بالحياة، والفكر النّيّر الثّاقب، ولم يتوقّف (ع) عند نفسِه وذاتِه، وإنّما تخطى ذلك للحفاظ على مصلحة الإسلام العليا، والمجتمع الإسلاميّ الّذي يقوم على بناء الفرد المؤمن صاحب القيم والأخلاق الرّفيعة، والعشق الإلهيّ المتجلّي بروحيته السّليمة المتمظهرة من خلال التّربية الرّوحيّة السّليمة التي أرسى أُسسها وأقام دعائمها إمامنا وأميرنا علي عليه السّلام.

والحمد لله ربّ العالمين.

(1)- العلّامة محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، دار الكتب الإسلامية، بيروت، ج61، ص 40.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. ابن أبي طالب، الإمام علي، نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، قم، إيران، ط1، 1414هجري.
2. ابن شعبة، الحسن بن علي، كتاب تحف العقول عن آل الرّسول، المطبعة الحيدريّة، العراق.
3. ابن عثيمين، أبو عبد الله محمد بن صالح التميمي، التحفة الرّبانيّة في شرح الأربعين حديثًا، مطبعة دار نشر الثقافة، الاسكندرية، ط1، 1380م.
4. حوى، سعيد، تربيتنا الروحية، دار الكتب العربية، بيروت، ط1، 1979م.
5. الخازني، أبو الفتح عبد الرحمن، كتاب ميزان الحكمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005م.
6. الطريحي، الشيخ فخر الدين، مجمع البحرين، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، 1984م.
7. العطية، مروان، معجم المصطلحات الجامع، معجم عربي عربي، المكتبة الشاملة،
8. المازندراني، كتاب شرح أصول الكافي،المكتبة الشاملة.
9. المجلسيّ، العلّامة محمد باقر، بحار الأنوار، دار الكتب الإسلاميّة، بيروت، ج61.
10. المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1